

٢- أثر الحرب الكبرى في بريطانيا

للأستاذ رمزي ميور

أستاذ التاريخ الحديث في جامعة منشتر سابقاً

ترجمة الأستاذ محمد بدران

ناظر مدرسة بماتادن الابتدائية

كذلك لم يعد لبريطانيا بعد الحرب ذلك السلطان الكبير الذي كان يولها إياه تفوقها التجاري على أمم العالم أجمع . نعم إنها لا تزال تمتلك وتسيطر على سفائن العالم ، وذلك لأنها أوسع أسواق الأرض حرية ، لكن نصف سفنها معطل ؛ وقد خسرت جزءاً كبيراً من تجارتها الخارجية التي تمسك عليها في حياتها وإن كانت صادراتها (منسوبة إلى عدد السكان) لا تزال ضمنى صادرات أكبر الأمم المتنافسة لها تقريباً . على أن ما فقدته من تجارتها الخارجية إذا رجع بعضه إلى خطأ ارتكبه فلا يرجع كله أو جله إلى ذلك الخطأ . ذلك بأننا في أثناء الحرب اضطرت أن تضحي بمعظم أسواقها الخارجية لكي تركز جميع قواتها القومية في الأعمال الحربية . وذلك المراه الذي تركته شغلت بعضه أمم أخرى (كاليابان والولايات المتحدة) لم يُنْقِصْ ظهورها عبء الحرب وشغل البعض الآخر ما قام من الصناعات القومية على انقراض الواردات البريطانية . فلما وضعت الحرب أوزارها أقيمت لحماية هذه الصناعات حواجز من الضرائب الجركية العالية ، وأخذت الأمم جميعها في داخل أوروبا وخارجها تعمل « للاكتفاء بنفسها » ، فأدى ذلك العمل إلى النتيجة السالفة الذكر ؛ وكان من جراء ذلك أن بريطانيا التي لا أمل لها في أن تكتفي بنفسها والتي لا تستطيع أن تحيا إلا بالتجارة مع العالم أجمع تجارة واسعة ، انحطت إلى المذلة التي انحطت إليها مدنية (ويانة) بعد الحرب . لقد كانت بريطانيا كما كانت ويانة تعتمد في رخائها على موقعها في

وقد طرقتني التائبات بمحادث
أراع ولم أذنب وأحنى ولم أحن
ولست وإن عض الزمان بفاربي
إذا ما أغام الخطب لم أحتفل به
ولما إذا بذل ويخضع ، وهو إن ضاقت عنه بلدة فستسرع
له أخرى ، وحسب البلدة عاراً أن يرذل الشاعر عنها ، وإن أدلت
عليه بابل بسحرها الحرام ، فهو يدل عليها بسحره الحلال ،
ويجمل من شعره حينما حلّ بابل ...

أبابل لا واديك بالرقد منهم
لئن ضقت عنا فالبلاد فسيحة
وإن كنت بالسحر الحرام مدلة
قوافل تعمير الأعين النجل سحرها
وأى فتى ماضى العزيمة راعه
ملوكك لاروى رباعك وابل

وبعد ... فاسمع الشاعر نفسه يصف لك شخصيته ، ويخبرك أنه يمدح ويأخذ ، ولكنه أعزّ من أن يملكه الملوك بثوابهم ونوالهم ، وأنه لا يستسيغ الذل ولا يجب أن يتمرغ فيه ظهراً لبطن ، ولا يألف حياة الدعة والأمن في ظلّ الروض بين الكاس والطاس ، ولا يفرق من النايا ويخشى المهالك ، ولكنه يريد أن يشيرها حرباً هواناً في سبيل غايته ومطامحه :

سواي يجرّ هفوة التظني
ويرخي عقد جبوته النمنى
ويلبس جيده أطواق نمنى
تشف وراءها أغلال من
إذا ما ساهمه اللؤماء ضيا
تمرغ في الأذى ظهراً لبطن
وظلّ نديم عاطية وروض
وبات صريع باطية ودن
وأشمر قلبه فرق النايا
وأودع سممه نغم النني
وصلصلة اللجام لدى أخرى
بمز في مباءته مبن
فلست لحاضن إن لم أقدها
عوابس تحت أغله يكن

وهانا أوسع الثقلين صدرا ولكن الزمان يضيق عني

هذه شخصية الأبيوردي وهذا شعره ، أفستحق أن يهمل

وينسى ؟ ...

(دمش)

على الطنطاوي

لها ، كل ذلك يكسبها ميزات عظيمة إذا أحسن الانتفاع بها .
وقد لا نجد بريطانيا في بلادها حاجتها من الزيت أو القوى المائية .
ولكن العلم والعمل كفيلا باستخراجهما من مناجم فخما
الفنية ؛ وربما كان النقص قد اعتري قدرتها المالية ، ولكن هذه
القدرة لا تزال عظيمة رغم هذا النقص ، وفي الامكان زيادتها إذا
اتخذت الوسائل الكفيلة بتشجيع الادخار ؛ وإذا أحسن توحيد
مجهودها القوى بقيادة رشيدة فإن هذا المجهود خليق بتخفيف
عبء الضرائب الذي لا يزيد كثيراً على ما كان عليه منذ مائة
عام إذا روعيت النسبة بين المهدين . كذلك لا يرجى أن تحتفظ
بريطانيا بما كان لها من تفوق عظيم في التجارة المالية ، ولكن إذا
أيقن عمالها والشرفون على الصناعة فيها أن الواجب يقضى عليهم
بأن يقاوموا كل منافسة شريفة بكفائتهم وحدها وأن يكونوا أنداداً
لنفسهم وأن ينظموا بيوتهم ، إذا أبقوا بذلك استطاعت بريطانيا
أن تستعيد من الأسواق ما يضمن لأهلها ارتقاء مطرداً في مستوى
معيشتهم ، وأن تنمي مواردها وموارد الامبراطورية ثماء عظيماً

ولكن يلوح أنها إذا شئت أن تنال هذه الأغراض فإن
عليها أن توجه إليها مجهوداً قومياً عاماً شبيهاً بالمجهود الذي أنالها
النصر في الحرب . ولا بد لها أن تتغلب على روح الاستسلام
والقنوط وما يؤدي اليه من خور في العزيمة . وأخيراً إن بلوغ
هذه الغاية موقوف على نوع الحكومة القائمة في البلاد وصفاتها ،
وذلك لأن واجبات الحكومة في الوقت الحاضر أكبر شأنًا
وأعظم أثرًا مما كانت في الماضي . وإن للطريقة التي تؤدي بها هذه
الواجبات أثرًا بليغاً في نفوس الشعب لا يعادله أثرها في الماضي ،
ولذلك يهمننا أن نعرف كيف عدل نظام الحكومة البريطانية
ذو الشهرة العالمية الكبيرة لكي يتفق مع مقتضيات العهد الذي
أعقب الحرب

ليس الجواب عن هذا السؤال مما يسر له الخاطر ؛ فإنا إذا
حكنا على الأشياء بنتائجها تبين لنا أن نظام الحكم البريطاني أقل
نجاحاً من النظام الفرنسي أو الألماني الحديث في بمت روح
النشاط القومي الموحد وفي قيادة الأمة في هذه الأوقات العصيبة ؛
وإذا حكنا على هذا النظام بأثره في أخلاق الناس من كافة الطبقات

ملتقى الطرق التجارية الكثيرة فإلها ما نال ويانة بعد أن أقيمت
الحوافز المتعددة في هذه الطرق التجارية ، وإلى هذا يرجع معظم
السبب في ازدياد عدد المتعطلين . وقد بلغ من خطورة هذه الحال
الجديدة أن أخذ قسم كبير من الرأي العام يدعو إلى ترك نظام
الحرية التجارية الذي تسير عليه بريطانيا واتباع سياسة « الاكتفاء
بالنفس » التي تتبعها البلدان الأخرى . ولما كانت بريطانيا
لا تستطيع أن تكتفي بنفسها إلا إذا خلصت من نصف سكانها
فقد قويت فيها الدعوة إلى التوصل لتلك الغاية ، غاية الاكتفاء
بالنفس اكتفاء تاماً — بتوحيد الامبراطورية من الناحية
الاقتصادية . فإذا ما رضيت أجزاء الامبراطورية بأن تتخلى عن
مسماها للاكتفاء بنفسها — وبميد أن ترضى بذلك في القريب
الماجل — كان معنى رضاها أن بريطانيا تضعف باختيارها أو قل
تعطل ثلثي تجارتها الخارجية لكي تنفرغ إلى إنماء الثلث الباقي ؛
وإذا فعلت ذلك فإنها تكون قد تحولت تحولاً تاماً عن السياسة
التي قام عليها النظام الاقتصادي البريطاني حتى الآن

هذه التطورات تمد في مجموعها انقلاباً خطيراً في مركز
بريطانيا ومبادئها يتطلب تعديلاً في سياستها القومية ، ولا شك في
أن بريطانيا تجتاز الآن أزمة بل خطراً قومياً شديداً . على أن
كل تغيير بمفرده لا يمد خطيراً في ذاته . فإذا كان مركز بريطانيا
الجزري لم يمد يكفل لها السلامة فإن سياسة عالية رشيدة تكفل
لها سلامة أبنى وأعظم ؛ ولا يزال موقع هذه الجزيرة في وسط أهم
الطرق التجارية البحرية وفي قلب العالم المتمدين تقريباً خير موقع
جغرافي يتمتع به بلد على وجه الأرض . وإذا لم تكن بريطانيا
الآن سيدة البحار بلا منازع فإن ذلك لا أهمية له إذا بقيت البحار
في سلام . وإذا لم تكن لها « السيطرة على امبراطورية فإن خيراً
من هذه السيطرة أن تكون هي القلب النابض لمجموعة من الأمم
الحرة على شريطة أن تنظم هذه المجموعة تنظيمًا يمكنها من أن تتعاون
تعاوناً حراً . وقد تكون بريطانيا وراء غيرها من الأمم في اتباع
أحسن وسائل التنظيم الصناعي ، ولكن هذا أمر يستطاع تداركه
بالعمل والحكمة . وإن انماج أجزاء مقاطعاتها الصناعية وقربها
من الثغور التي تستمد منها حاجتها ومن مصادر القوى اللازمة

٢ - الامبراطورية البريطانية

تتألف الامبراطورية البريطانية من ثلاثة عناصر مختلفة :
 أولها الأملاك العظيمة التي تحكم نفسها بنفسها ، وهي أملاك كانت منذ زمن طويل ولا تزال حتى الآن دولاً مستقلة كل ما بينها وبين بريطانيا من روابط أنها تدين معها بالطاعة لتاج واحد ، وأنها تشترك معها فيما تتمتع به من نظم الحرية . وثاني هذه العناصر هو البلدان الشرقية ذات الحضارة القديمة ، وهي الهند وسيلان وبلاد الملايو ؛ وهي بلاد للحكومة البريطانية عليها إشراف مباشر أكبر مما لها على البلدان الأولى ، وإن كانت هذه البلدان أيضاً أخذت تطالب بحكمها في حكم نفسها بنفسها ونالت بعض هذا الحق في السنين الأخيرة . والنصر الثالث أجزاء الامبراطورية المحكومة ، وتشمل أصبغاً واسعة في أفريقية لم تنضم إلى الامبراطورية إلا في خلال الخمسين سنة الأخيرة . وهذه الأملاك تسيطر عليها الحكومة البريطانية — بيطرة فعلية بأشكال مختلفة . هذه الامبراطورية العجيبة التكوين التي تشمل ربع مساحة المعمورة وربع سكانها ، ليست موحدة التركيب ولا النظام ، وليست لها قوة مركزية فعالة تفرض طاعتها على هذه الأجزاء ، اللهم إلا قوة الأسطول . ولقد أخذ شكل هذه الامبراطورية منذ عام ١٨٣٠ يتغير تغيراً مضطرباً حسب الظروف ، ويتحول بالتدريج من امبراطورية بالمعنى الصحيح إلى ما يسمونه الآن أسرة من الأمم على أن هذه الامبراطورية كانت إلى ما قبل الحرب بقليل وحدة متماسكة من ناحيتين مهمتين على أقل تقدير ، فقد كان لها سياسة خارجية واحدة تسيروا كلها (هويت هول) ؛ وكانت جميع أجزائها حتى الأملاك المستقلة التي كانت الروح القومية تضطرم فيها راضية بترك العلاقات الخارجية في يد وزارة الخارجية البريطانية ، وذلك لقلّة دراية هذه الأجزاء وقلة اهتمامها بشأن كل أوروبا ، واعتقادها أن لا شأن لها بهذه المشاكل ؛ ولم يؤخذ رأي مندوبي الأملاك المستقلة في السياسة الخارجية إلا في السنين المضطربة التي سبقت الحرب عندما اشتد الخطر الألماني ، فمقد المؤتمرات الامبراطورية في عامي ١٩٠٧ و ١٩١١ ؛ على أنه حتى في ذلك الوقت لم تتخذ وسائل رسمية لتنظيم طرق هذه الاستشارة أو الإدارة العامة ،

رأينا أنه لم يخلق زعماء أنجاداً قادرين على التفكير والانشاء بنالون ثقة الأمة ويتحملون تبعات أمثال شترزمان في ألمانيا ، أو بوانكريه وبريان في فرنسا (رغم ما فيهم من نقص) . وقصارى القول إن هذا النظام لم يفلح في إثمار الأمة بمحاجتها إلى توحيد جهودها وخلق الزعماء الذين يقودونها في بذل هذه الجهود

وقد يكون سبب هذا المعجز أن بريطانيا الآن تواجه عهداً جديداً بإداة حكومية لا تستطيع أن تعالج ما فيه من المشاكل . ويلوح أن السياسة البريطانية يسيطر عليها أكثر مما يجب التنافس الدائم على السلطة بين الأحزاب المختلفة التي لا يبدل كل منها جهده في العمل الانشائي المنتج بل في التشهير بغيره وكشف عيوبه ونقائصه . لسنا ننكر أن الأحزاب السياسية أداة ضرورية للحكم الديمقراطي ، ولكن يلوح أن نظام الأحزاب البريطانية جامد خال من الرونة يجعل للشرفين على سياساتها شذمة قليلة من الزعماء المطلقين التصرف يستقلون بوضع خطط الحزب ، ولا ينفك أتباعهم أنفسهم يضمرون في نفوسهم الثورة عليهم وإن أطاعوهم في إعطاء أصواتهم ، وذلك لأن هؤلاء الزعماء ينكرون عليهم حرية المناقشة بل حرية العمل

لقد تكلمنا من قبل عما طرأ على نظام الحكم البريطاني من تغير ، وقلنا إن أهم مظاهر هذا الحكم مظهران : أولهما تركيز السلطة جميعها من تشريعية ومالية وإدارية في يد وزارة حزبية قليلة العدد أقرت ظهرها المسئوليات الجسيمة التي أخذتها على عاتقها فأصبحت عاجزة عن النظر إلى حاجات الأمة نظرة واسعة المدى . وثانيهما حرمان البرلمان من كل سلطة إلا من إشراف صوري على أعمال الحكومة حتى صار عمله في الحقيقة مقصوراً على تقديمها . إن في وضع البرلمان أن يشهر بأعمال الحكومة ويظهرها . ولكنه ممنوع من أن يعمل شيئاً من عنده لإصلاحها . فلابح والحالة هذه إذا لم يكن في الامكان مواجهة الطوارئ القومية الخطيرة وعلاجها علاجاً ناجحاً . وإذا شامت بريطانيا أن تنازل الصعاب التي قامت بعد الحرب وهي واقعة من النجاح كان عليها كما يلوح أن تبدأ بإصلاح زعامتها وأغلبها الحكومية

القتال ، ولاح أن الحرب وعنها أثبتت صلاحية نظام الامبراطورية الحر الطليق على الرغم من تراخيه وقلة تماسكه . لكن ضخامة هذه التضحيات بدل موقف الامبراطورية بأزاء مشاكل الدفاع والسياسة الخارجية ، وأحدث في بناء هذه الامبراطورية تطورات غاية في الأهمية ، فلم يعد في الامكان بعدئذ أن تعالج هذه الأمور وكأنها لا تعنى الأجزاء النائية من الامبراطورية ، بل كان لابد من استشارة ممثلها بوسيلة من الوسائل إذا أريد أن تبقى هذه قائمة

وفضلا عن ذلك فقد شعرت الهند ، وكان لابد أن تشعر ، أنها بعد أن اضطلعت في الحرب بهذا العمل الخطير قد قويت حجتها في أن يؤخذ رأيها عن طريق الموظفين البريطانيين الذين يديرون دولاب حكومتها ، وأن يعترف بأنها وحدة قائمة بذاتها ، وأن تتمتع بما يتمتع به غيرها من أجزاء الامبراطورية من حقوق الاستقلال الداخلي ؛ وبذلك كانت الحرب سبباً في تقوية الحركة القومية في الهند وفي غيرها من أجزاء الامبراطورية

(البقية في العدد القادم) محمد بيراه

وبقي وزير خارجية بريطانيا هو نفسه وزير خارجية الامبراطورية جميعها . كذلك كانت الامبراطورية كلها تعتمد على نظام مشترك للدفاع عن جميع أجزائها ، وكان عبء هذا الدفاع يكاد يقع كله على عاتق بريطانيا ، كما كانت أداته الفعالة بطبيعة الحال هي الدستور الذي يحفظ طرق المواصلات البحرية بين مختلف أجزاء الامبراطورية مفتوحة . والذي جعل للأسطول هذه الأهمية أن الامبراطورية البريطانية لا يستطيع غزوها برأ إلا من مكان واحد هو حدود الهند الشمالية الغربية ؛ فلما بدأت بريطانيا تخاف ألمانيا قبيل الحرب تبادلت أجزاء الامبراطورية الرأي لأول مرة في شؤون الدفاع ، واشتركت الأملاك المستقلة بعض الاشتراك في نفقات الأسطول ، واتبع في تنظيم القوات الحربية القليلة التي كانت هذه الأملاك تحتفظ بها نظام الجيش البريطاني ؛ وكان هذا الجيش قد أعيد تنظيمه قبل ذلك الوقت على يد اللورد هالدين ، ولكنه مع ذلك لم توضع خطة للدفاع الامبراطوري ، كما أنه لم تكن ثمة استشارة امبراطورية في الشؤون الخارجية

وكان كثير من الناس يتوقعون أن الامبراطورية ستتهار وتتطلع أوصالها إذا ما لاح شبح الحرب لسبب ما هي عليه من ضعف في النظام . وكانت ألمانيا بوجه خاص تتوقع أن تنفض الأملاك المستقلة يدها من النزاع ، وأن يتدخل في الهند لهيب الثورة ؛ وأن الأملاك الجديدة في أفريقية وغيرها من القارات سيحتاج الاحتفاظ بها الى قوى كبيرة . لكن مجرى الحوادث بدد هذه الأوهام ، وكان من أعظم مظاهر الحرب ما تجلى من روح الاخلاص والاجامى الحماسي في كل جزء من أجزاء الامبراطورية تقريباً ، وما ضحت به هذه الأجزاء من أنفس وأموال تقدمت بها الشعوب في أطراف الأرض عن رضا وطيب خاطر ، فقد جندت كندا وزيلندة الجديدة وأستراليا جميع رجالها تقريباً . ولما تمردت طوائف البور الشاكسة في جنوب أفريقية أخذ البور أنفسهم هذا التمرد على الفور ، ثم بذل الشعبان اللذان تتكون منهما تلك البلاد جهدا عظيما في الإستيلاء على المستعمرات الألمانية ، وأرسلت كتاب من بلادها الى خنادق فرنسا . وفي الهند سكن الاضطراب السياسى الذى كان منتشرًا قبل الحرب وأرسلت منها الى فرنسا وفلسطين والعراق والصين جيوش لم ترسل الهند مثلها من قبل الى ميادين

صدرت الطبعة السادسة من كتاب :

تاريخ الأدب العربي

في جميع عصوره

بفلم الأستاذ محمد حسن الزينات

وهذه الطبعة تقع في زهاء خمسمائة صفحة من القطع المتوسط ، وتكاد — لما طرأ عليها من الزيادة والتنقيح — تكون مؤلفاً جديداً الثمن ٢٠ قرشاً عدا أجرة البريد